المحاضرة الثالثة

التدخل الأجنبي في الصين خلال القرن التاسع عشر

مع مطلع القرن التاسع عشر دخلت الصين مرحلة حاسمة من تاريخها العريق اتسمت بتازم شامل طال كل الميادين وتأكد مع حلول منتصف القرن ١٩ بشكل فعلي العجز الكلي لحكومة المانشو عن الحفاظ على سيادة البلاد وهيبة إمبراطورية السماء أمام الأجانب ورعاياها على السواء.

لقد كان أهم ما ميز تطور الأوضاع في الصين خلال هذه الظرفية هو اشتداد الضغط الإمبريالي وما أثاره هذا الضغط من تدمر واستياء في صفوف الفئات الشعبية اختلفت أشكال تعبيره ما بين انتفاضات فلاحية وتمردات تتزعمها جمعيات سرية وبين ثورات شعبية تقودها الأقليات الإثنية والدينية المضطهدة. وكلها شكلت هبات عنيفة هزت أركان الإمبراطورية الصينية بأسرها. لقد ظلت التجارة الأوربية في الصين خلال المرحلة السابقة عن القرن التاسع عشر منحصرة في بعض المرافئ (ماكاو وكانتون) حيث فشلت عدة محاولات للبعثات التجارية الأوربية في مساعيها الهادفة إلى توسيع المبادلات التجارية بين بلدانها والصين، وإلى حدود العقود الأولى، من القرن التاسع عشر ظلت قيمة صادرات الصين تفوق بكثير قيمة وارداتها، ذلك أن الأوربيين، وفي مقدمتهم الإنجليز كانوا يقبلون على شراء كميات كبيرة من الشاي والحرير والخزف وسلع أخرى دون أن يتمكنوا من تصريف المقابل من بضائعهم، غير أن هذا الوضع سيتغير مع تزايد اهتمام الرأسمالية الأوربية بالسوق الصينية، فبريطانيا بعد أن تقوى نفوذها بإتمام غزو الهند وبما صار لها من قوة وبطش من جهة، وأمام استمرار الرفض الصيني للعروض البريطانية الرامية إلى توسيع العلاقات التجارية من جهة ثانية صممت على استخدام القوة لإرغام الصين على فتح أبوابها أمام التجارة الحرة، وتأتى لها ذلك عن طريق إدخال الأفيون إلى الصين. حيث لجأت شركة الهند الشرقية إلى ترويج هذا المخدر على نطاق واسع فقفزت نسبة تجارية من ١٧ % سنة ١٨١٨ إلى ٥٠ % سنة ١٨٣٣ من مجموع قيمة الواردات البريطانية إلى الصين .

وإذا كانت هذه التجارة قد مكنت بريطانيا من تعديل كفة الميزان التجاري في مبادلاتها مع الصين لصالحها وجعلتها تجني أرباحا مذهلة، فغني عن البيان ما كان لنشاط تهريب الأفيون من أثار وخيمة على أبدان وعقول الناس خصوصا إذا علمنا أن عادة تدخين هذا المخدر قد انتشرت بسرعة بين أبناء الشعب الصيني، إذ تفيد بعض التقارير أن نسبة مدمني الأفيون قد ارتفعت في

أواخر القرن الماضي إلى خوالي ربع الشعب الصيني، ناهيك عما وجهته هذه التجارة من ضربات موجعة للاقتصاد الوطني تمثلت في تدفق العملة الفضية خارج الصين دون مراقبة، وارتفاع ثمنها ارتفاعا كبيرا في الداخل، بالإضافة إلى تفشي الرشوة في صفوف المسؤولين وجباة الضرائب الذين عملوا على تحصيل قدر أكبر من المحاصيل والضرائب حتى يظل رصيدهم من الفضة ثابتا رغم ارتفاعها، كل ذلك ساهم في خلق جو من الاستياء العام في صفوف قطاعات عريضة من الشعب تطالب بالقضاء على الأفيون ولا سيما الفلاحين الذين وقع على كاهلم العبء الأكبر، مما يفسر الدور الريادي لهذه الفئة الاجتماعية في أغلب التمردات والانتفاضات التي عمت مجموع البلاد الصينية حوالي النصف الثاني من القرن ١٩.

حرب الأفيون الأولى (١٨٤٠ -١٨٤٢) :-

وتحت ضغط الرأي العام وشعور الحكومة الصينية بالخوف من استفحال عواقب تجارة الأفيون اقتصاديا وسياسيا قرر الإمبراطور اتخاذ إجراءات فعالة لإيقاف تلك التجارة وأهمها إصدار مرسوم يقضي بمنع تجارة الأفيون منعا كليا وفرض عقوبات صارمة على المهربين الصينيين وكل من له علاقة بهذه التجارة، ومن أجل تنفيذ هذه الإجراءات عين (لي تشي هسو) مندوبا إمبراطوريا ساميا وتخويله سلطات مطلقة لأداء مهمته، وفور وصوله إلى كانتون طلب التجار الأجانب بتسليم ما لديهم من أكياس الأفيون والحصول على تعهدات من ربابنة السفن بعد إحضار الأفيون أو بيعه وإلا تعرضوا لعقوبة المصادرة، كما أمر جميع العمال الصينيين المرتبطين بهذه التجارة بمقاطعة أي تعامل مع التجار والسفن الأجنبية، وأمام رفض المشرف البريطاني على التجارة في كانتون لأوامر المندوب الصيني، قام هذا الأخير بمحاصرة حي التجار الأجانب في كانتون وحجر أكثر من ٢٠ ألف صندوق من الأفيون وإحراقها في حفل عام سنة ١٨٣٩، وقد كان هذا الإجراء بمثابة الشرارة الأولى التي أشعلت نيران حرب الأفيون الأولى.

لقد أثار إجراء المسؤول الصيني غضب البريطانيين باعتباره يحرمهم من مورد ضخم يدر عليهم أرباحا كبيرة، لذا أعلنت بريطانيا الحرب على الصين في أبريل ١٨٤٠ بدعوى أن الصين تقف في وجه التجارة الحرة وتسيء التعامل مع الرعايا والتجارة الإنجليز، كما طالبت بتعويض قيمة الأفيون المصادر والاعتراف بشرعية الإنجاز في الأفيون كسلعة تجارية فضلا عن شروط أخرى استهدفت النيل من سيادة الإمبراطورية .

وأمام رفض المسؤول الصيني للمطالب البريطانية دخل الطرفان في مواجهة عسكرية تمثلت في حصار الأسطول البريطاني لميناء كانتون، ومنه واصل البريطانيون قصفهم لموانئ أخرى، وتمكنوا من احتلال ميناء أموي Amoy وتيجهاي ونينغ بو Ning-po (٩ مارس ١٨٤٢) وشنغاي (١٨ يونيو ١٨٤٢) هذا وقد تخللت هذه المعارك التي دامت سنتين مفاوضات فاشلة (اتفاقية شوينيي التي نصت على تسليم هونج كونج إلى الإنجليز، ودفع غرامة ستة ملايين ريال من الفضة، وفتح كانتون للتجارة البريطانية) وما أن تأكد تفوق القوات البريطانية حتى عبر الصينيون عن استسلامهم خصوصا و أن هذه القوات كانت قد عبرت نهر اليانغ تسي كيانغ للقيام بهجوم على مدينة نانكينغ، المدخل المباشر لبكين، وهناك تم توقيع معاهدة نانكينغ (١٩ يونيو ١٨٤٢) التي حوت شروطا مجحفة في حق الصين وجعلتها تحت رحمة الرأسمالية الأجنبية.

لقد أرغمت الصين على فرض غرامة مالية كتعويض عن الأفيون المصادر، على أن من أخطر بنود هذه المعاهدة هي التنازل لبريطانيا عن جزيرة هونج كونج ذات الموقع الاستراتيجي الخطير، وفتح خمس موانئ للتجارة الأجنبية: كانتون – شنعاي – أموي – نينغ بو – فوتشيو Fou-teheou يسمح فيها للتجار الأجانب وعائلاتهم ومؤسساتهم بالإقامة بقصد مزاولة أعمالهم التجارية دون أدنى مضايقة أو قيد كما فرض على الصين تحديد الرسوم الجمركية على الواردات البريطانية وبأن لا تزيد عن نسبة ٥ % مما شل إمكانيات نمو الصناعة الوطنية، واتفق على تعيين قناصل بريطانيين يتكفلون بالدفاع عن مصالح التجار الإنجليز وتطبيق القانون البريطاني على الرعايا الانجليز جنائيا ومدنيا، وأخيرا حصلت على امتياز يجعلها الدولة الأكثر رعاية ( ) في معاملاتها التجارية مع الصين، وكان من الطبيعي في إطار التنافس الاستعماري التقليدي أن تتحرك باقي الدول الأجنبية للحصول على امتيازات مماثلة لتلك التي حظيت بها إنجلترا بمقتضى معاهدة نانكينغ، وأمام تهديدات هذه الدول اضطرت الحكومة الصينية للرضوخ إلى مطالبها وإمضاء اتفاقية وانجهيا (٣ يوليوز ١٨٤٤) مع الولايات المتحدة الأمريكية، ثم اتفاقية وامبوا (Wham pou) ٢٤ أكتوبر من نفس السنة مع فرنسا، وقد نصت هذه الأخيرة بالإضافة إلى الامتيازات الاقتصادية على حق إقامة الإرساليات التبشيرية ورعاية الدين المسيحي.

لقد أكد تطور الأحداث مدى ضعف السلطة الحاكمة وعجزها عن الحفاظ على سيادة البلاد من جهة، وعدم قدرتها على التحكم في الأوضاع المضطربة وفشلها في مواجهة الانتفاضات الفلاحية من جهة ثانية، وقد كان من أخطرها انتفاضة التايبينغ.

المحاضرة الرابعة

انتفاضة التابيينغ (١٨٤٥)

عرفت الصين طوال تاريخها العريق عدة هبات فلاحية بدأ من حركات العمامات الصفراء Turbans Jaunes في القرن الأول (م) ومرورا بالانتفاضات التي قامت في عهد سلالة سونك Song في القرنين ١٢ و ١٣، ثم انتفاضات أواسط القرن ١٧. غير أن حدة هذه الانتفاضات اشتدت أكثر، وعرفت إقاعا مسترسلا ابتداء من العقد الرابع من القرن ١٩، حيث قام الفلاحون الصينيون باكثر من مائة هبة محلية في الفترة ما بين عامين (١٨٤١ – ١٨٤٩) منها ٢٦ هبة في عام ١٨٤٨ وحدها، وخلال الفترة الممتدة ما بين (١٨٥٠–١٨٧٠) اندلعت في مجموع الأقاليم الثمانية عشر موجة من الانتفاضات بتأطير من الجمعيات السرية. إلى درجة أصبحت معظم هذه الأقاليم خارجة عن تحكم السلطة المركزية خاصة ما بين (١٨٥٥–١٨٦٠) ولم يكن من الصدفة أن تندلع هذه التحركات في وقت حروب الأفيون وانفتاح أبواب الصين أمام التجارة الحرة، لقد كانت في مجموعها تعبيرا عن مدى تذمر الشعب من آثار الهجمة الاستعمارية ومن تعسف جباة الضرائب واستبداد موظفي الدولة وتخاذل أسرة المانشو الحاكمة. ولم تشكل هذه التحركات ثورات بالمعنى الدقيق للكلمة، بقدر ما كانت هبات عفوية سرعان ما تخبو إما بتدخل الجند لسحقها، أو تفشل لقصور كفاءتها التنظيمية أو لضعفها العسكري، أو لعدم قدرتها على الامتداد وراء حدودها.

وتعتبر انتفاضة التابيينغ من أعنف هذه الانتفاضات وأكثرها أصالة بالنظر إلى وقعها السياسي، وامتدادها الزمني والمكاني، وحجم قاعدتها الاجتماعية، إنها نفس الآن نتيجة لما آلت إليه الأوضاع المتأزمة في الصين ولمضاعفات التدخل الأجنبي.

قاد حركة التيابينغ مدرس ينتمي إلى أسرة فلاحية فقيرة من الجنوب يدعى هونغ سيوتسواف Hong Xivquan، الذي كان على اتصال بإحدى الإرساليات التبشيرية، فتأثر ببعض مبادئ الديانة المسيحية مما أضفى على حركته طابعا دينيا يمزج بين عناصر من العقيدة الكنفوشوسية واللاهوت المسيحي وأشاع أنه مبعوث من إلاه السماء لإسقاط دولة المانشو وإقامة دولة بديلة تقوم على المساواة المطلقة بين الناس.

وقد انضم إلى جمعية "عباد الله" التي أسسها هونغ عدد من الأنصار من مختلف الفئات المتضررة من واقع الأزمة كالفلاحين الفقراء وعمال المناجم والحطابين والعمالين، وقد تولى بعضهم الزعامة السياسية والعسكرية في دولة التايبينغ نذكر منهم شي تاي كاي Shi Dakai

ويلي هيسو شينج. لقد انطلقت حركة التايبينغ من إقليم كوانجسي Guangxi حيث كان الصراع بين الفلاحين وملاكي الأراضي وممثلي الجهاز السلطوي قد بلغ مدى لم يبلغه في أي مكان آخر، فضلا عن موقعه كمنطقة خلفية لكانتون إحدى القواعد الرئيسية للتواجد الأوربي.

وشرع هونغ في تنظيم مجموعات من الفلاحين المسلمين سرعان ما ازدادت أعدادها وانبثق عنها جيش قوي ارتفع عدده من عشرين ألف إلى أكثر من مليون مقاتل، وبهذه القوات استطاع هونغ احتلال شمال كوانجسي وإعلانه إمبراطور مملكة السلام السماوية في ١١ يناير ١٨٥١، ثم واصلت قوات التايبينغ تقدمها نحو الشمال، واحتلت مدينة نانكينغ سنة ١٨٥٣، واتخذتها عاصمة لمملكة السلام، هذا وقد كانت جيوش الانتفاضة خلال زحفها من كوانجسي إلى نانكين تقوم بتحطيم القصور، وتصفية ملاك الأراضي والماندران Mandorins وخدامهم. وتصادر اموالهم وممتلكاتهم لتوزعها على الفلاحين في كل منطقة تدخلها.

وما إن استقر التايبينغ في نانكين حتى شرع هونج في شن تنظيمات جديدة، والإعلان عن برنامج الإصلاح الزراعي القاضي بجعل ملكية الأرض جماعية، غير أن هذا البرنامج لم يحقق بفعل الظروف الشاقة التي واجهت الانتفاضة والمتمثلة في استمرارية المعارك المتعددة ضد جيش المانشو، فضلا عن افتقار القيادة إلى الكفاءة التخطيطية و الاقتصادية. كذلك أقر قادة الانتفاضة في المناطق التي احتلوها حق المرأة في المساواة الاقتصادية و السياسية مع الرجل والسماح لها بالمشاركة في الوظائف العمومية كما دعوا إلى محاربة الفساد والميسر وتحريم الأفيون.

وإذا كانت مملكة السلام قد نجحت قفي الاستمرار والبقاء في الحكم مدة أربع عشر سنة فإن قيادتها لم تستطع الحفاظ على تأييد عامة السكان بعد أن انطفأت جذوة الحماس الأول، ذلك أنه بعد استقرار التايبينغ بناكين أقام زعمائها جهازا حكوميا ووضعوا مؤسسات بيروقراطية يتولى موظفوها مهمة فرض الضرائب على الفلاحين مما أدى إلى معارضة الأتباع مع مضي السنوات، هذا بالإضافة إلى تفتيت الوحدة القيادية نتيجة الصراع على النفوذ والسلطة وما أحدثه هذا الصراع من انشقاق بين الزعماء كان له أثره البالغ في انهيار مملكة التايبينغ سياسيا وعسكريا، وعليه فإن انتفاضة التايبينغ لم تكن في حصيلتها النهائية سوى إعادة إنتاج للنظام السياسي الكلاسيكي على حد تعبير الباحث Jeau Chesneaux.

وبالإضافة إلى هذه العوامل المرتبطة بطبيعة الانتفاضة ذاتها وتطور مسارها، فقد كان من أهم الأسباب التي أدت إلى فشلها هو مساعدة القوى الأوربية لحكومة المانشو ومدها بالأسلحة

والعتاد لسحق الانتفاضة، فقد كان من بنود اتفاقية بكين ١٨٦٠ إثر هزيمة الصين في حرب الأفيون الثانية هو التزام القوى الأوربية بمساندة جيوش الإمبراطورية في قمع الانتفاضات الفلاحية، وفي مقدمتها انتفاضة التايبينغ، وفعلا بفعل الدعم الأجنبي تمكنت القوات الرسمية من استرجاع أغلب المدن التي احتلها الثوار، وكانت آخرها العاصمة نانكين سنة ١٨٦٤، كما تعرض أغلب قادتها للإعدام، وهكذا تم القضاء على مملكة التايبينغ.

وقد تزامنت مع انتفاضة التايبينغ انتفاضات أكثر عفوية عمت مناطق متفرقة من أنحاء الإمبراطورية وكان من أهمها انتفاضة إقليم نيان (١٨٥٣–١٨٦٨) كما ثارت الأقليات المسلمة في الشمال الغربي (١٨٦٣–١٨٧٣) وفي الجنوب الغربي بإقليم يونان (١٨٥٣–١٨٧٣) وقد اندلعت هذه الانتفاضة الأخيرة نتيجة لسوء معاملة المسؤول الإقليمي للعمال المسلمين وإثقال كاهلهم بالضرائب، ولم تكن انتفاضة المسلمين الأقل عنفا وخطورة من التايبينغ، إذ لم تتمكن حكومة المانشو من إخمادها سنة ١٨٦٣ إلا بمساعدة التدخل العسكري للقوى الأجنبية.

– الوصاية البريطانية وتفاقم أزمة الحكم الصيني

أوضحت الأحداث التي أعقبت هزيمة الصين في حرب الأفيون الأولى وقبولها بالمعاهدات اللامتكافئة وما أثارته من ردود فعل داخلية تمثلت في موجة من الانتفاضات الشعبية التي عبرت عن استياء السكان من التدخل الأجنبي ومن استبداد موظفي الدولة. وهي انتفاضات ساهمت بدورها في تعميق الأزمة العامة.

أوضحت هذه الأحداث أن الإمبراطورية الصينية قد دخلت مرحلة تأزم شامل ومتعاظم جعلت الصين تحت رحمة الوصاية الفعلية للقوى الأوربية وسيطرتها السياسية والاقتصادية، وبدا معها واضحا أن نفوذ المانشو كان يسير نحو الزوال.

فالدول الأوربية لم تقتنع بما حصلت عليه من امتيازات وأخذت تمارس كل أشكال الضغط مطالبة بتعديل اتفاقيات للحصول على مزيد من التسهيلات والتنازلات، وكانت أهم مطالبها تتلخص في الأهداف التالية: حرية الدخول إلى جميع أجزاء الإمبراطورية، حرية الملاحة في نهر اليانجستي، إباحة قانونية لتجارتي الأفيون والخنازير، (وهو اسم كانوا يطلقونه على العمال الصينيين)، إقامة علاقات ديبلوماسية منتظمة مع بيكين، والسماح للمثلين الديبلوماسيين بالإقامة في العاصمة، وقد كان واضحا أن الصينيين لابد و أن يقاوموا تلك الأهداف ولا ينصاعوا لهذه المطالب المشتطة إلا بعد أن تصاب الصين بهزيمة ساحقة، وفعلا لم تجد فرنسا وأنجلترا في خلق معاذير ينتحلونها للحرب وفرض تنازلات جديدة، حيث استغلت بريطانيا حدث استيلاء السلطات الصينية على سفينة قرصنة صينية ترفع العلم البريطاني، ووجدت السلطات البريطانية في هذا العمل الذريعة التي كانت تبحث عنها فطلب المندوب السامي البريطاني في هونج كونج الإفراج عن بحارة السفينة وتقديم اعتذار عن الحادث لأن السفينة وربانها تحت الحماية البريطانية، ولما رفضت السلطات الصينية هذا الطلب غير المعقول، أعلنت بريطانيا الحرب على الصين (حربي الأفيون الثانية والثالثة). وسرعان ما انضمت فرنسا إلى الحرب بدعوى أن قسيسا فرنسيا قد قتل. وانتهت الحرب بهزيمة الصين وإرغام حكومة المانشو على توقيع معاهدة تيان – تسين المهينة (يونيو١٨٥٨) ومن بعدها معاهدة بكين (٢٥ أكتوبر ١٨٦٠).

وقد حققت هذه المعاهدة للدول الأوربية ما كانت تصبو إليه وتحارب من اجله مدة السنوات العشرين التي سبقتها، فبمقتضاها اتسعت حرية التحرك لدى التجار الأوربيين عبر مجموع التراب الصيني، ورفع المنع عن تجارة الأفيون وحق الأجانب في استخدام العمال الصينيين في مناطق

بعيدة، وفتح إحدى عشر ميناء جديدا للتجارة الأوربية، منح الحرية للمبشرين المسيحيين في نشر معتقداتهم في الداخل، وبالإضافة إلى كل ذلك فرضت المعاهدة رقابة مالية على الصين حيث أصبح أحد المسؤولين البريطانيين مفتشا عاما للجمارك البحرية، ودفع غرامة حربية، وفضلا عن ذلك قضت المعاهدة بأن يكون من حق الدول الأجنبية إرسال بعثات سياسية دائمة.

لقد شكلت اتفاقية بكين نقطة تحول كبرى في تاريخ العلاقات الصينية الأجنبية وأنهت صفحة العداء بين حكومة المانشو والقوى الأجنبية، ذلك أن هذه القوى أصبحت تسعى إلى الحفاظ على استمرارية النظام الإمبراطوري، وحصل تحالف بين الطرفين في مواجهة أي تحرك أو تمرد شعبي يستهدف الإطاحة بالأسرة الحاكمة، وأصبحت الصين تحت وصاية الأجانب، بل كل تاريخ الصين بعد حرب الأفيون الثانية إلى نهاية القرن التاسع عشرة عبارة عن محاولات الدول الأجنبية اقتسام مناطق النفوذ بها. ويمكن إنجاز أهم هذه الوقائع فيما يلي:

الحرب الصينية – اليابانية (١٨٩٤ – ١٨٩٥).

مع نهاية القرن ١٩ غدت اليابان قوة صناعية تتطلع بدورها إلى مد تجارتها، ومنافسة القوى الأوربية في اقتسام النفوذ بالمنطقة، فبدأت تضغط على الصين للتخلي عن حقوقها التاريخية في كوريا، وأقحمت الصين في حرب قصيرة انتهت بهزيمتها وتوقيعها على معاهدة (شيمونوسيكي)، اعترفت فيها بحق اليابان في إقامة المصانع على الأراضي الصينية، والتخلي عن نفوذها على كوريا. والتنازل عن جزيرة تايوان (فرمورة) وعلى ميناء بور – ارثور، وشبه جزيرة لياو–تونغ، وأداء غرامة حربية اضطرت إلى اقتراضها من الدول الأوربية.

تجزئة الصين Breakup (١٨٩٦ –١٨٩٨)

أعطى الانتصار الياباني إشارة الانطلاق للدول الأوربية وقيامها بعملية تجزئة شبه شاملة للصين مست كل المناطق الاستراتيجية والعسكرية (واتخذ هذا الإجراء شكل عقود تأجيرية لمدة ٩٩ سنة) حيث حصلت كل دولة على منطقة نفوذ يسمح لها فيها باستغلال باطن الأرض وإنشاء السكك الحديدية واستقدام جيوشها "للحفاظ على الأمن". وهكذا كانت منشوريا من نصيب روسيا، وشبه جزيرة شانتونج من نصيب ألمانيا، وخليج كوانجسو شوان في جنوب الصين من نصيب فرنسا، بينما استولت بريطانيا على منطقة ويهاي وي، وكل المنطقة الممتدة على نهر اليانجسيتي، وبذلك أصبحت الصين عبارة عن مستعمرة دولية.

لقد أدت السياسة الاستعمارية وعملية الابتزاز المنظمة لموارد الإمبراطورية إلى أزمة مالية خانقة تمثلت في إفلاس الخزينة الصينية، واضطرار الصين إلى الاستدانة من مستغليها، وتنازلها كضمانة لتسديد القروض عن حق تحصيل رسوم الجمارك وبعض رسوم النقل الداخلي مما يعني سيطرة القوى الأوربية على مقومات الاقتصاد الصيني وعجز النظام المانشوري عن إصلاح الأوضاع والحفاظ على سيادة البلاد. وكانت النتيجة المباشرة هي تزايد سخط وتذمر الفئات الشعبية وتحوله من انتفاضات عفوية إلى انتفاضة جماعية منظمة ممثلة في حركة البوكسير التي انطلقت من تآلف كل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة الحكومة، ولكل أشكال الوجود الأوربي، والتي أصبحت تحمل اسم "قبضة اليد للسلام والعدالة"

حركة البوكسير (١٨٩٧-١٩٠٠)

اندلعت حركة البوكسير في إقليم الشانتونج تحت قيادة جمعية "الفضيلة والنظام" إحدى الجمعيات السرية الكثيرة، وهي جمعية عرفت بممارستها لرياضة الملاكمة المقدسة التي كانت تجمع في نفس الآن بين تمارين جسدية وتدريب نفسي حيث كان المنضوون تحت لوائها يمارسون مجموعة من الطقوس الدينية والسحرية مرتدين زيا خاصا يميزهم عن غيرهم، وقد كان أغلب أعضاء الجمعية في بداية انطلاقتها هم فلاحي الشمال المتضررين من مجاعتي ١٨٩٦-١٨٩٧ وفيضانات النهر الأصفر (١٨٩٦)، فضلا عن العناصر التي همشها الوجود الأوربي (صغار التجار، الحرفيون، البحارة القدامى، الجنود المطرودين)، ومن صفوف هؤلاء تشكلت قيادة الحركة الكونفوسين كما انضم إلى الجمعية عدد كبير من المثقفين الكنفوسين نظرا لأن تزايد النفوذ الفكري والديني للمبشرين المسيحيين أصبح يهدد وجودهم ويشكل خطرا عليهم، كما كان من أعضاء الجمعية نساء كثيرات شكلن وحدات داخل الجمعية كوحدة "المصابيح البيضاء" و"المصابيح الحمراء" ولاشك أن حضور المرأة بهذه الكثافة كان يعكس مدى عمق الأزمة الاجتماعية التي أدت إلى تفكيك الأسرة التقليدية في المدن وحتى في البوادي.

لقد انطلقت حركة البوكسير كحركة فلاحية مستهدفة تصفية "الماندران" وكبار ملاك الأراضي، رافضة لكل أنواع الضرائب، غير أن عداءها كان موجها أساسا ضد الأجانب ولا سيما المبشرين والصينيين المتمسحين، وتتضح معاداتها للتحديث وكراهيتها للأجانب من خلال الشعارات التي كانت ترفعها مثلا "إن المسيحيين والبرابرة أقلقوا راحة آلهتنا بحياتهم الفاضحة و هذا

هو الأصل في المآسي التي تنصب على رؤوسنا، هذا الجفاف المهول الذي عم هذه السنة أغلب المناطق سيستمر مادام بين جدراننا شخص واحد من هذه الشياطين"

بمثل هذه القناعات انعدلعت حركة البوكسير ودخلت في صراع ضد كل أشكال الوجود الأوربي حيث قامت بقطع خطوط التلغراف والسكك الحديدية المؤدية إلى بكين وتخريب المراكز التجارية والمؤسسات الصناعية ونهب مباني المبشرين وتعرض الأجانب في إقليم شانتونغ منطلقها إلى تصفية جسدية واسعة، ومع توسع قاعدة صفوف الحركة أصبح هدفها هو احتلال العاصمة بكين.

أما موقف الحكومة، فقد عارضت تحت وطأة ضغط الدول الأجنبية –أعمال التمرد التي كان يقوم بها الملاكمون حيث شن حاكم إقليم شانتونج حملة قمع واسعة وتم إعدام مجموعة من كبار مسيري الجمعية، كما منع الانخراط في أي جمعية من الجمعيات السرية، غير أن هذه الإجراءات لم تحل دون استمرارية الحركة بل على العكس من ذلك ازدادت قوة وتوسع نفوذها مما جعل أسرة المانشو تغير موقفها تجاه البوكسير.

لقد ارتأت الإمبراطورية "تزوهسي" تجنبا للاصطدام مع قوة الملاكمين واستغلالها لحسابها في الضغط على الأجانب، إذ لم تبد أي مقاومة أثناء زحفها إلى بكين ومهاجمتهم لممتلكات ومباني الأجانب، بل أكثر من ذلك اعترفت علانية بمشروعية حركة البوكسير، كما انضمت بعض القوات الرسمية إلى قوات الملاكمين أثناء مهاجمة المفوضيات الأجنبية في بكين وضواحيها طيلة خمسة أيام لقي خلالها الأجانب خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، عندئذ شعر ممثلو الدول الأجنبية بضرورة اتخاذ إجراءات حربية غير أن كل دولة وقتذاك لم تكن لتسمح للأخرى بمبادرة التدخل منفردة حتى لا توسع نفوذها على حساب الدول الأخرى، غير أن حدث اغتيال الوزير الألماني "كيتلر" ببكين دفع هذه الدولة إلى شن حملة من الدعاية استهدفت تأجيج الرأي العام الأوربي وحث الحكومات على التدخل الفوري لسحق حركة الملاكمين وما هي إلا أيام حتى اقتحمت القوات الأجنبية العاصمة بكين، وعلى امتداد أسبوعين تعرض الصينيون لأبشع الجرائم حيث كان يتم يوميا إعدام آلاف المواطنين كما تام تدمير المنازل والأحياء ونهب نفائس القصر الإمبراطوري، وأرغمت الصين مرة أخرى على قبول صلح مهين، حيث فرضت القوى الأوربية دفع تعويضات باهضة بلغت مائة مليون جنيه، وحق إبقاء حاميات عسكرية ببكين لضمان حماية وأمن

الرعايا الأجانب وحراسة السفارات الأجنبية، كما تقرر حضر استيراد الأسلحة لمدة سنتين، وهدم تحصينات "تاكو" مما يعني وضع بكين تحت الاحتلال الأجنبي الفعلي.